بناء القصيدة الصوفية في الشعر الموريتاني في القرنين 14/13هـ
(من خلال نصوص مختارة)

المصطفى بن مَعَا
طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج
كلية الآداب، جامعة انواكشوط العصرية

مقدمة:

يسعى هذا المقال إلى العنايةِ بالشعر الصوفي الموريتاني؛ هذا الشعر الذي هجره معظم الدارسين ولم يلتفتْ إليه إلا القليلون من خلال بضعة أعمال ظلت تهتم أساسا بالسياقات التاريخية والنظرية التي نشأ فيها التصوف ومدارسه كالقادرية والتيجانية والشاذلية والتعريف بأعلامها، بينما تركوا الأدب نسيا منسيا، وهنا نضع السؤال التالي ما مدى التواصل أو التصالح بين التصوف من حيث هو خطاب فكري يهتم بتطهير النفس الإنسانية من أدرانها، وتحليتها بقيم الفضيلة، وهو ما أوجزه علماء التصوف في ثنائية "التحلية والتخلية" وبين الشعر من حيث هو بنية لغوية له فنياته وأساليبه ورآه الإبداعية؟ أو كيف تتجلى مكونات كل من "التصوف والشعر" في الآخر ليخلق ذلك ما يمكن أن يسمى شعرا صوفيا؟

وقد تشكلت مادة هذا المقال من خلال نصوص منتقاة لشعراء موريتانيين هم: الشيخ سيدي المختار الكنتي ت: 1226هـ/1811م، وأبو بن الجار الأنتابي في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، وبدي بن سيدينا العلوي ت:1264هـ/1848م، وسيدي محمد بن انبوجه التيشيتي ت:1275هـ/1858م، والشيخ سيديا الكبير ت:1284هـ/1867م، والشيخ ماء العينين ت:1328هـ/1910م، ومحمد يحيى الولاتي ت:1330هـ/1912م، ولكبيد بن جبه اليحيوي ت:1342هـ/1923م.

1) أولا-البناء الفني:

ونعني به ذلك النظام الذي يحكم بناء القصيدة الصوفية الموريتانية هل هو بناء عمودي صرف كأغلب نصوص الشعر الموريتاني؟ أم هو بناء خارج عن نظام العمود الخليلي (موشح – مربع –

مخمس ...إلخ)؟ وبعد عودتنا لمدونة الشعر الصوفي الموريتاني رأينا أن بناء القصيدة الصوفية يحكمه نظامان أساسيان هما:

1.1- **القصيدة العمودية الخليلية:**

هو النظام الذي يحكم بناء القصيدة العربية من العصر الجاهلي مرورا بصدر الإسلام وما تلاه من عصور الأدب العربي؛ وبعد قراءتنا لبعض نصوص الشعر الصوفي الموريتاني وجدنا هذا البناء يتجلى في الأشكال الآتية:

أ- **القصيدة العمودية التقليدية:** ونعني بها تلك القصيدة العربية ذات الروي المعهود وعلى نسقه الموسيقي سار معظم الشعر الصوفي الموريتاني، وأمثلته كثيرة كما شاهدنا في قصيدة لكبيد بن جبه في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والحديث عن شمائله:

بـــكَ يـــا جمـــالَ الكـــونِ يـــا ميمـــونُ ... مـــا كـــانَ كـــانَ ومـــا يكـــونُ يكـــونُ
فـــالكونُ أنـــتَ إمامـــه وأرومُـــهُ ... والكائنـــاتُ مـــنَ الأروم غُصُـــونُ
أنـــوارُ يمنـــك أشـــرقَتْ ولآدَمٍ ... فِـــي طَـــيِّ أحشـــاءِ التـــرابِ كمـــونُ
فيهـــا تلقـــى مـــا تلَقَّـــى فاهتـــدى ... إذ خانـــه الملعـــونُ وهـــوَ خَـــؤُونُ
وبهـــا اهتـــدى نـــوحٌ ففـــازَ وموجُـــهُ ... مثـــلُ الجبـــالِ وفلْكُـــهُ مشـــحونُ
وبهـــا ابـــنُ متـــى ألهـــمَ التســـبيح فـــي ... ظلماتـــه وبهـــا رمـــاهُ النُّـــونُ([1])

ب- **القصيدة العمودية المسوقة أبياتها على ترتيب حروف: (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري** – آمين – وعد) مع التزام مالا يلزم في تائية الشيخ سيديا ومنها:

رفعـــتُ إلـــى مـــولايَ جـــلَّ شـــكيتي ... وَأَمْلَـــتُ نَشْـــلِي عنـــده مِـــنْ بَلِيَّـــتِي
بليـــتُ وهـــلْ يبلـــى مزيـــدٌ بمثـــلِ مـــا ... بليـــتُ بـــه مـــن خبـــثِ نفسٍ غَوِيَّـــةِ
إذا رمـــتُ قربـــى أبطـــأتْ وَتَلَـــدَّنَتْ ... ومـــا هـــيَ فيمـــا تشـــتهي بِالْبَطِيَّـــةِ
شـــمائلها لهـــوٌ ونـــومٌ وغفلـــةٌ ... وحـــرصٌ وتأميـــلٌ وســـوءُ طَوِيَّـــةِ

([1]) – لكبيد بن جبه، الديوان جمع وتحقيق: أحمد بن الشايع، تقديم ومراجعة: الخليل النحوي، الشركة العامة للطباعة تونس، ط1، 1992، ص:95-97.

رأت منقضـــات الظهـــر منهـــا خفيفـــة ... وعـــدت مواطـــاة الهـــوى كَالْمَزِيَّـــةِ
حجـــابٌ عماهـــا عـــنْ شـــهودِ صـــفاتها ... بـــه حجبـــت عـــنْ مشهَـــدِ الأُحْدِيَّـــةِ
لـــذلك أفنـــت جـــدها واجتهادهـــا ... ومرغبهـــا فـــي الفانيـــاتِ الرَّدِيَّـــةِ
يكـــادُ رضـــاها حكـــم جـــائر نفســـها ... يمحـــي رضـــاها حكـــم عـــدلِ القَضِـــيَّةِ
صـــحت مِـــنْ ســـماءِ الـــواراتِ ســـماؤها ... بعصـــفِ ريـــاحِ الهاجســـاتِ الرديـــة
دعتهـــا دواعيهـــا الكـــواذب أنْ قَضَـــتْ ... بإحرازهـــا نعـــت النفـــوسِ الرَّضِـــيَّةِ
رزيتهـــا فيمـــا تـــراه مقربـــا ... ومـــا فيـــه غيـــر البعـــد أدهـــى رَزِيَّـــةِ
يـــري عينهـــا العميـــا غوايتهـــا هـــدى ... مَـــنِ انْ يَـــدْعُهَا للغـــي لبـــت وحيـــتِ[1]

وللشيخ ماء العينين قصيدة مديحية ساقها على ترتيب الحروف الهجائية منها:

أنـــور لأنـــوار المعـــارف ســـاطع ... أم البـــرق مـــن صـــوب الأحبـــة لامـــعُ
بلـــى إن يكـــن نـــورا فـــذا الحـــق واضـــح ... وإن يـــك بـــرق فالســـحابة هـــامعُ
تـــلا فـــتلا تبـــرا فأيقنـــت أنـــه ... تـــلألأ مـــن نـــور الحبيـــب ســـواطعُ
تثيـــت لـــه وجهـــي وقلبـــي وقـــالبي ... ويـــثخن ذا الأشـــواق بـــدع وبـــارعُ
جمـــال تجلـــى مـــن جمـــال يزينـــه ... جلـــي بهـــاء الحســـن للحســـن جـــامعُ
حبيـــب بـــه أخفـــى المحبـــة ظـــاهر ... وأظهرهـــا خـــاف وللشـــرك بـــاخعُ
خلافتـــه أخفـــت ظهـــورا لباطـــل ... وأبـــدت خفـــاء الحـــق للحـــق خاضـــعُ
دلالـــة وجـــدان الـــولادة دلـــت ... علـــى الحـــق مثـــل الصـــبح لليـــل دافـــعُ
ذرى وذروهـــا إن يرومـــوا صـــعودها ... ســـموا ومـــا أعلـــى ســـماء ذرائـــعُ
رقـــى فرقـــى يرقـــى ســـماء ســـماءها ... جناســـا وعرشـــا قـــاب قوســـين دانـــعُ
زكـــى وهنـــا يزكـــو تـــدل لمرتـــق ... وآض لنـــا مرقـــى التـــدلي شـــرائعُ[2]

([1]) . الشيخ سيدي الكبير، الديوان تحقيق: عبد الله بن إسماعيل بن أبي مدين، (دت)، ص:69 – 70.

([2]) – الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل، الديوان، تحقيق: بسام محمد بارود، تقديم: ماء العينين محمد بوي، طبع على نفقة الدكتور: حسن عباس زكي، 2004، ص:154– 157.

ج-القصيدة **العمودية التي تبدأ أبياتها بنفس كلمات القوافي:** وبمعنى آخر أن كل بيت من هذه القصيدة ينتهي بما بدأ به أولا، فالكلمات في نهاية الأعجاز هي نفسها الكلمات التي في بداية الصدور، ومثاله قول الشيخ ماء العينين مبتدئا كل بيت باسم من أسماء الجلالة بصيغة المنادى الدالة على الطلب:

أيـا **(رافـع)** ارفعنـي بعلـم وبـالتقى ... وعنـي ظلمـا فارفعنـهُ **أرافـعُ**

ويـا **(واسـع)** وَسِّـعْ لنـا الـرزقَ كلـه ... وَوَسِّـعْ صـدورا بـالعلوم **أواسـعُ**

ويـا **(جـامع)** اجمعنـي مَـعَ الأهـل كلهـم ... ولـي فـاجمعْ الخيـراتِ كـلا **أجـامعُ**

ويـا **(مـانع)** امنعنـا مـن الشـر كلـه ... ومـن كـل أعـداء وضـر **أمـانعُ**

ويـا **(نـافع)** انفعنـي بعمـريَ والـورى ... وللخلـق فـاجعلني نفوعـا **أنـافعُ**

ويـا **(دافـع)** فـادفعْ عـدانا وضـرهم ... وعنـا شـرورا فادفعنهـا **أدافـعُ**

ويـا **(سـامع)** فاسـمع دعـائي أجـب لـه ... وقـولي مسـموعا يكـون **أسـامعُ**[1]

ويندرج في نفس البناء قول لكبيد بن جبه التندغي:

(نـدائي) مـا سـمعت ومـن **(نـدائي)** ... **(دعـائي)** فاسـتجب كرمـا **(دعـائِي)**

لـ**(دائـي)** قـد دعوتـك فلتجـد لـي ... بعافيـة فـلا يـدلي بـ**(دائـي)**

(دوائـي) أنـت تعلمـه ومـن ذا ... سـوى الـرحمن يعلـم مـا **(دوائـي)**

(شـفائي) فـي يـديك بـلا عـلاج ... وأرجـو أن تعجـل لـي **(شـفائي)**

(رجـائي) لـم يـزل حسـنا كظنـي ... فـلا خـاب الظنـون ولا **(كفـاني)**

(مسـائي) والصـباح لـك التحايـا ... وأدعـو فـي الضباح وفـي الـ**(مسـائي)**

(ثنـائي) بلغنـه إلـى المقفـى ... فـلا أنفـك أمنحـه **(ثنـائي)**[2]

([1]) – نفسه، ص:284.

([2]) . ديوان لكبيد بن جبه اليحيوي التندغي، مصدر سابق، ص: 21– 22.

د- **القصيدة العمودية المزدوجة:** ونعني بها القصيدة التي تلتزم رويا موحدا في نهاية كل من الصدر والعجز، فيكون من ذلك قصيدتان متوازيتان كما في القصيدة التالية لبو بن الجار الأنتابي:

أيـــا حليمـــا يـــا كريمـــا لـــم يَـــزَلْ ... أنـــتَ المُرَجَّـــى رَبُّنَـــا أنـــتَ الأَمَـــلْ
أَزِحْ إلهـــي عَـــنْ مُرَجِّيـــكَ الْعِلَـــلْ ... وارزقْـــهُ مِـــنْ كَـــوْثَرِكَ الْعَـــذْبِ النَّهَـــلْ
والحُـــورَ والحَلـــيَ الثمـــينَ والحُلَـــلْ ... والنـــورَ والظـــلَّ الـــذي لا ينتَقِـــلْ
ونعمـــــةً لا تنقضـــــي ولا تَفِـــــلْ ... وَاهْـــدِ الـــذَّرارِي رَبَّنَـــا ولا تَكِـــلْ
إلـــى النفـــوس فعليـــك المُتَّكَـــلْ ... واخـــتمْ لِمَـــنْ بـــينَ الرجـــاءِ والوَجَـــلْ
بأحســـنِ الخـــتمِ إذا حـــان الأجـــلْ ... والطـــفْ بـــه إذا بـــه المـــوتُ نـــزلْ
بجـــاه مَـــنْ لَبَّـــى وطـــافَ وابْتَهَـــلْ ... واجتنـــبَ النَّهْـــيَ وَللأمـــرِ امتثَـــلْ([1]).

ويقول ابن انبوجه من قصيدة له:

يـــا عالمـــا بحـــالتي فِـــي عَـــدَمِي ... وَأَنَّنِـــي ســـوفَ تَـــزِلُّ قَـــدَمِي
أوجـــدتَ أصـــلي بوجـــودِ آدَمِ ... ثُـــمَّ لنطفـــةٍ إلـــى طَـــورِ دَمِ
لطـــورِ مضـــغةٍ لطـــورِ الأعظـــمِ ... ثـــمَّ كســـوتُ أعظمـــي مِـــنْ ألْحُـــمِ
ومنتنـــي فـــي ظلمـــاتِ الـــرَّحِمِ ... بـــنعمٍ موصـــولةٍ بـــنِعَمِ([2])

ويتضح أن القصائد التي يحكمها هذا النظام صيغت في الغالب على بحر الرجز، مما جعل بعض الشعراء يلجأ إلى هذا البناء ليزيد من غنائية القصيدة، وليخفف من رتابتها الموسيقية، إضافة إلى أنها كثيرا ما تكون في الدعاء والتضرع.

([1]) . أبو بن الجار الأنتابي، الديوان، جمع وتحقيق: الخراشي بن محمد أحمد، رسالة الإجازة (مرقونة) بكلية الآداب بجامعة نواكشوط، السنة (2004/2003)، ص:29- 30.

([2]) . سيدي عبد الله بن انبوجه، ضالة الأديب ترجمة وديوان سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجه العلوي التيشيتي، تحقيق ودراسة الدكتور: أحمد ولد الحسن، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو – (1417هـ/1996، ص:234.

هـ-القصيدة **العمودية الدائرية**: ويتجلى هذا البناء في منحيين بارزين هما:

أ- **القصيدة التي ينسج منها عدة نصوص في بحور مختلفة**: كما في دالية الشيخ سيدي الكبير في مدح شيخه سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي التي ينسج منها ثلاث قصائد؛ حيث تجمع الكلمات الأولى من صدور الأبيات التي تحتها خط فيتكون من ذلك قصيدة ثانية على بحر المديد، بينما تجمع الكلمات الأولى المكبرة من عجز كل بيت، فيأتي من ذلك قصيدة ثالثة من بحر البسيط؛ يقول في القصيدة الأولى (سرد المساحة):

طلعـــت بِبُرْجِـــكَ للبريـــةِ أســـعدُ ... ***أيـــام*** جـاد بـك الزمـانُ الأجـودُ

مـــزنُ النـــدى بسـماءِ كَفِّـكَ لَـمْ يَـزَلْ ... ***يـروي الظمـا*** منهـا الـرواءُ المرتـدُ

وطفـــا لطائفـــة الرســـوب علـــى مطـــا ... ***بحـــر بـــه*** لـك طوفـوا مـا يقصـدُ

فهمـــت مخاطبـــة النفـــوسِ لمـــن بهـــا ... ***جثمـــوا*** لـديك خطـاب مـن يتـوددُ

للمجتـــدي مـــن غمـــر فائضـــه لهـــى ... ***تعجيـــل*** واصـل جزلهـا لا ينفـدُ

طرفـــا يـزاحم فـي الحصـول سـماحة ... ***إبرازهـــا*** ممـن جـداها الموعـدُ

شـــربت شـــوارع وردهـــا مـــن مـــورد ... ***لـــم يحكـــه*** البحـر الخضـم المزبـدُ

مـــن لجـــة أمـــدادها وفيوضـــها ... ***نعـــم*** عطـاء مفيضـها متبـددُ([1])

والبيت الأول من القصيدة الثانية (سرد الأوائل):

طلعـــت مـــزن النـــدى وطفـــا ... فهمـــت المجتـــدي طرفـــا

أما البيت الأول من القصيدة الثالثة (سرد الأواسط):

أيـام يـروي الظمـا بحـر بـه جثمـوا ... تعجيـل إبرازهـا لـم يحكـه نعـم

([1]) – ديوان الشيخ سيدي، مصدر سابق، ص: 92-98.

ب- **القصيدة التي تقرأ أفقيا وعموديا:** أو بعبارة الدكتور: محمد الظريف «تقرأ من كل جهة عرضا وطولا.. فتصنعوا في صياغتها وأسرفوا في اختيار ألفاظها وتعابيرها حتى ظهر التكلف على بعضها، ومن النماذج المعبرة على ذلك قول الشيخ ماء العينين في التعبير عن بعض أحواله([1])»:

من غرام يا تمام	كل عام بك، ظام
بك ظام من غرام	يا تمام كل عام
كل عام بك ظام	من غرام يا تمام
يا تمام كل عام	بك ظام من غرام([2])

يقول محمد الظريف:« وهي تعكس بهذا البناء الفسيفسائي تصنع صاحبها وتكلفه في التعامل مع اللغة، غير أن هذا التكلف لا يهدف إلى إبراز مقدرة الشيخ ماء العينين اللغوية، وإنما هو شكل من أشكال التعبير الفنية التي تزمي إلى تقديم المعاني الصوفية في شكل بديع يلائم سموها وجلالها وجمالها»([3]).

1.2- **القصيدة الموشحة:**

ويدخل في هذا البناء مجموعة من الأشكال الشعرية الصوفية التي تحيد في بنائها العام عن جادة الطريق التي عَبَّدَها الشعراءُ العرب بدءا من العصر الجاهلي إلى اليوم كما وصفه الخليل بن أحمد الفراهيدي في ميزانه الشعري؛ سواء كان هذا البناء موشحا أو مربعا أو مخمسا، تفاديا للخلاف في تصنيفها، ومن ذلك ما يلي:

([1]) – الدكتور: محمد الظريف، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، ط1، 2003، ص:294.

([2]) – نفسه، ونفس الصفحة.

([3]) – نفسه، ونفس الصفحة.

أ- **القصيدة المربعة:** ويدخل في هذا البناء قول الشيخ سيدي المختار الكنتي ([1]):

أهـــلا بشـــهر المولـــدِ شـــهر النبـــي الأمجـــدِ
أتـــى بســـعد الأســـعدِ خيـــر الـــورى محمـــدِ
بشـــرى هنيئـــا يـــا ربيـــعْ قـــد خصـــك المـــولى الرفيـــعْ
بالمصـــطفى نعـــم الشـــفيعْ الهاشـــمي محمـــدِ
فـــي ليلـــة الاثنـــين لاحْ بـــدر الهـــدى نـــور الفـــلاحْ
يهـــدي إلـــى دار النجـــاحْ أكـــرم بـــه مـــن مهتـــدِي
وقـــد رووا لاثنـــي عشـــرْ خلـــت مـــن الشـــهر الأغـــرْ
تـــاج العـــلا وجـــه القمـــرْ صـــلوا علـــى محمـــدِ([2])

ويسير في نفس البناء قول محمدي بن سيدينا العلوي ومنها:

يـــا ربنـــا صـــلِّ عَلَـــى خيـــرِ الأنـــامِ مـــنْ عَلَـــى
علـــى الســـماواتِ الْعُلَـــى بـــإذنِ رَبِّـــهِ الْعَلِـــي
تهنئـــةِ الزبيـــعِ بمدحـــةِ الشـــفيعِ
بـــالمنطقِ البـــديعِ أبغـــي بهـــا مـــؤملِي
أهـــلا بشـــهر المولـــدِ شـــهر العلـــى والســـؤددِ

([1]) – ومن المعلوم أن أول شاعر موريتاني اخترع هذا البناء الشعري هو العلامة المتصوف محمد سعيد اليدالي المتوفى سنة 1166هـ، في قصيدته المشهورة (صلاة ربي)، ومنها:

صـــلاةُ رَبِّـــي مـــعَ الســـلامِ
علـــى حبيبِـــي خيـــرِ الأنـــامِ
بـــادي الشـــفوفِ دانـــي القطـــوفِ
بـــر عطـــوفِ ليـــث همـــامِ

أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الشركة الدولية للطباعة، ط6، (1429- 2008)، ص:226- 229.

([2]) – الشيخ سيدي المختار الكنتي، الديوان (مخطوط شخصي)، ص:104-105.

شـــــهر النبـــــي أحمـــــد شـــــهر ربيـــــع الأولِ[1]

وتبعهم في هذا المنحى الشيخ ماء العينين في قصيدته التي منها:

يـــــا ربِّ منـــــك ذي الحيـــــاةِ ومنـــــك ربـــــي ذي الممـــــاتِ
فَنَجِّـــــنَا مِـــــنْ كربـــــاتِ هـــــذي الحيـــــاةِ والممـــــاتِ
وكـــــنْ لنـــــا وَالْوَالِدَيْـــــنِ وللبنـــــاتِ والبنـــــينِ
وإخـــــوتي فـــــي الجانِبَيْـــــنِ فـــــي ذي الحيـــــاةِ والممـــــاتِ
وعافنـــــا مِـــــنْ كـــــلِّ مَـــــا يضـــــرنا مرتســـــمَا
أو يوذنـــــا ولـــــو ســـــما فـــــي ذي الحيـــــاةِ والممـــــاتِ
وقـــــوِّ ربِّ نصـــــرتِي وَقَـــــوِّ ربِّ نضـــــرتِي
كـــــنْ لـــــي وَكُـــــنْ لحضـــــرتي فـــــي ذي الحيـــــاةِ والممـــــاتِ[2]

ويسير في نفس البناء قصيدة محمد يحي الولاتي مربعا بها قصيدة لإبراهيم الرياحي في مدح الشيخ أحمد التجاني؛ إذ يقول:

أقـــولُ للخـــلِّ يبغـــي الفـــوزَ بـــالآسِ والأمـــنَ مـــن شـــرِّ وســـواسٍ وخنـــاسِ
صـــاحِ اركـــبِ العـــزمَ لا تخلـــدْ إلـــى اليـــاسِ واصـــحبْ أخـــا الحـــزمِ ذا جِـــدٍّ إلـــى قَـــاسِ
وَالْـــزَمْ مَجَالِسَهُـــمْ واحفـــظْ نفـــائسَ مـــن بـــدر هنـــاك بـــدا يســـقي الرحيـــقَ بمـــنْ
وَاقْـــرِ السَّـــلامَ علـــى تلـــكَ المعاهـــدِ مِـــنْ حيـــرانَ تلفظـــه نـــاس إلـــى نـــاسِ[3]

ب- القصيدة المخمسة: ويدخل في هذا البناء قصيدة محمد يحيى الولاتي التي يهجو فيها بعض الروافض الشيعيين الذين يجيزونَ الطَّعْنَ في الصحابة رضوان الله عليهم ومنها:

أيـــا قاصـــدا بطحـــاءَ طيبـــةَ تجتـــدِي فضـــائلَ آثـــارِ النبـــيِّ تجتـــدي

([1]) . الدكتور: محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، دار الأمان بالرباط، ط2، (1424هـ/2003)، ص:177-181.

([2])- ديوان الشيخ ماء العينين، مصدر سابق، ص:269-271.

([3])- محمد يحيى الولاتي، الديوان، جمع وتحقيق: الساس ولد أبَّ، رسالة (مرقونة) بالمدرسة العليا للأساتذة والمفتشين 1984، ص:64- 67.

عليكَ بغضِّ الطرفِ في كلِّ مشهدٍ وَحَسِّنْ بجيرانِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

ظُنُونَكَ وَاتْرُكْ فِي بَوَاطِنِهِمْ بَحْثًا

لهمْ ذِمَّةٌ منها يهابُ جنابُهُمْ فهم جارُهُ حسا ومعنى سِبابُهُمْ

يغيره والغض منهم وعابُهُمْ هوَ اللَّيْثُ في الأشبالِ والدارِ غَابُهُمْ

وَمَنْ أَغْضَبَ الأشبالَ فَلْيَتَّقِ اللَّيْثَا[1].

ج-القصيدة **الشعبية**: ونعني بها النص الجاري على نمط القصيدة الشعبية التي يتصدرها "الكاف" فنتوالى "اطلع" بعده مشكلة بذلك قصيدة طويلة النفس؛ كما في القصيدة التالية للشيخ سيدي الكبير في مدح شيخه:

يا مَنْ طَوى طَوَيْتُمْ مِنْ شاحبٍ صفرِ الْيَدِ

ما قلتُ قدْ قَضَيْتُمُ لكنه كأنْ قَدِ

أرى الرضى عن ذي الرِّضَى وكلِّ خلقٍ مرتَضَى

قدْ نبذا وارتفضا قبلَ غدٍ أَوْ في غَدِ

إذ القضا قَدِ انْقَضَى عنْ أسودٍ وأسودِ

إذا القضاءُ قدْ نَفَدْ وإن يقدر لم يفِدْ

وجدَّ سير بالمجدْ مؤوبًا ومغتدِ

أرى الضجوع قد أفدْ على ثَرَى لَحْدٍ نَدِي

تَعَوَّذُوا وَبَسْمَلُوا وَكَبَّرُوا وَهَيْلَلُوا

وحوقَلُوا وحَسْبَلُوا وَمَدَّدُوا كلَّ يَدِ

واستمطرُوا واستنزلوا لطفَ الكريمِ السَّيِّدِ[2].

([1]) . نفسه، ص:58.

([2]) . ديوان الشيخ سيدي، مصدر سابق، ص:265- 268.

2) **ثانيا-الأغراض الصوفية في الشعر الموريتاني**، ونوجزها فيما يأتي:

1. **المدحة النبوية:** حيث يأتي الشاعر بعدة وحدات دلالية متسلسلة تمثل في جوهرها صلب هذا المديح؛ بدءا بالمقدمة الطللية ثم يصف الشاعر الناقة التي يستعين بها في الوصول إلى الممدوح مستحثا إياها على السير بسرعة فائقة، ثم يخلص الشاعر إلى المدح الذي هو غرض القصيدة، وإذا كانت القصيدة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الشاعر يتدرج فيه بذكر الغزوات أولا والصحابة ثانيا مرورا بآل البيت ثم التوسل على أن يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة قصائد المدحة النبوية: رائية بدي بن سيدنا العلوي التي مطلعها:

لِمَـــنِ الـــديارُ بســـاحلِ الأنهـــارِ ... أقـــوينَ مـــذ حِقَـــبٍ وَمُـــذْ أعصـــارِ

أتغـــزلا حَـــوْلَ الحمـــى وَصَـــبَابَةً ... والشـــيبُ لاحَ بمفرقـــي وعـــذاري

إنَّ امْـــــرُؤًا والأربعـــــونَ تُظِلُّـــــهُ ... لـــمْ ينزجـــرْ لعلـــى شـــقًا وخســـارِ

يـــا للإلـــهِ وكـــلّ عبـــدٍ صـــالحٍ ... مِـــنْ مكـــرِ نفـــسٍ قادهـــا للنـــارِ

متشـــبثا منهـــا بحقـــوِ المصـــطفى ... متحيـــزا منهـــا إلـــى المختـــارِ

اعكـــفْ علـــى أمـــرِ الإلـــهِ وَنَهْيِـــهِ ... سَـــلِّمْ ولا تعتـــبْ علـــى الأقـــدارِ

واعمـــلْ لِبـــرحِ الـــنفسِ واتـــركْ حَظَّهـــا ... واعمـــلْ بأربعـــةٍ تعنـــك خيـــارِ

سَهَـــرٌ علـــى جـــوعٍ وصـــمتٌ دائـــمٌ ... وبعزلـــةٍ تنهـــاكَ عـــن إضـــرارِ

وكـــذاك حـــبُّ المصـــطفى أشـــعرته ... قلبـــي وحـــبُّ القـــوم كـــان دثـــارِ

ويسير في نفس البناء همزية لكبيد التي مطلعها:

للـــدارِ بعـــدَ اغتبـــاطِ الحـــالِ إقـــواءُ	ولليـــالي علـــى الأطـــلالِ إخنـــاءُ
لكنمـــا الشـــيبُ ينهـــى أنْ يصـــاخَ لهـــا	فالشـــيبُ عَـــنْ داعيـــاتِ الْغَـــيِّ نَهـــاءُ
أنـــبْ إلـــى اللهِ وارجُ العفـــوَ منـــهُ وَخَـــفْ	فَـــذُو الإنابَـــةِ خـــوافٌ ورَجَّـــاءُ
طـــه النهـــوض بأعبـــاءِ الشـــفاعَةِ إذْ	مـــا نـــاءَ عنهـــا بأهـــلِ العـــزمِ أعْبـــاءُ
فاقـــتْ جميـــعَ البرايـــا منـــهُ أربعـــةٌ	خَلْـــقٌ وخُلْـــقٌ وأفعـــالٌ وأســـماءُ
أســـرى مِـــنَ المســـجدِ الأقصـــى فكـــانَ لـــه	بالعبـــدِ فـــوقَ الطبـــاقِ الســـبعِ إســـراءُ
أدنـــى فـــأوحى الـــذي أوحـــى لـــه قَـــلَهُ	بقـــاب قوســـينِ إدنـــاءٌ وإيحـــاءُ
آياتـــه الغـــرُّ عَـــزَّتْ رفعـــةً وَسَـــنًى	ولا يحـــيط بهـــا نقـــلٌ وإمـــلاءُ

وهذا الشيخ ماء العينين يسير على نفس المنحى في رائيته قائلا:

بالواســـعاتِ أرى الأشـــواقَ تَنْهَمِـــرُ	مِـنْ واسـعاتِ صـدورِ الشـوقِ تَتَّفَجِـرُ
مِـــنْ ذِكْـــرِ غانِيَـــةٍ تســـبي بفـــاترةٍ	تضـــني ببارقـــة تشـــفي وَتَفْتَجِـــرُ
طريقـــةُ المصـــطفى بالمصـــطفى اصْطُفِيَـــتْ	ذاكَ اصـطفاءٌ لـه قـدْ صـورتْ صُـوَرُ
جـــمٌّ فضـــائلُهُ جَهْـــرٌ فَـــرائِضُهُ	حُمَّـتْ مفاخِـرُهُ، والغيـرُ مـا افْتَخَـرَ
خيـــرُ الخلائـــقِ مَـــنْ دنـــا لـــه ذعنـــا	رواحـــه زائـــر يغـــدو وَيَبْتَكِـــرُ
طيـــبٌ عناصـــره، طيـــبٌ مَعَاصِـــرُهُ	ظفـــرٌ مظـــاهره عِـــداهُ تُحْتَقَـــرُ
بـــه ألـــوذُ مـــلاذَ مـــن لـــه فطـــرت	ذنوبـــه روحـــه والقلـــبُ يَنْفَطِـــرُ
ومنـــه أرجـــو كمـــالَ مقصـــدٍ فَتَـــرَتْ	أعمالنـــا عنـــهُ والأطمـــاعُ مـــا فتـــروا
عليـــه منـــي الـــذي ينهـــى الصـــلاة كمـــا	أنهـــى الـــذي هـــو لا فـــردٌ ولا زُمَـــرُ

نستنتج من هذا أن قصيدة المديح النبوي تَقَارَبَ شعراءُنا في بنائها الفني مع تغيرٍ طفيفٍ في طريقةِ ترتيبِ عناصرها الداخلية، إذ تبدأ عندهم غالبا بمقدمة طللية مرورا بحديث الشيب والبكاء على العمر الضائع ثم الخلوص إلى المديح الذي يستغرق الكم الأكبر من النص، بما يتخلله من علامات النبوة، ومعجزاته وشمائله الشريفة، والتوسل بجاهه العظيم، والدعاء، فالختم بالصلاة على

النبي صلى الله عليه وسلم، ويبقى ترتيب هذه العناصر بين المقدمة والخاتمة هي محل الإبداع والخصوصية الفردية لشاعر ما، فربما أطال الشاعر في فكرة معينة وأوجز القول في أخرى.

2. المدحة الصوفية:

وهي القصيدة التي قيلت في مدح شيخ الطريقة الصوفية، فهي كسابقتها تبدأ بمقدمة طللية مرورا بالتوسل بالشيخ الممدوح وذكر خصاله والحديث عن مكانته العلمية والثقافية وما يتميز به من الاستقامة في السلوك والعمل، ولا يلتزم في نهايتها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتنفرد مدائح الشيخ سيدي بالوقوف عند بعض كرامات شيوخه، والخروج على المقدمة الطللية ما عدا القصيدة التالية:

تسخو بدمعٍ على الخدين منسكبِ ... وزفرةٍ من حشا حيزومِ منتحبِ

كأنَّ مقلتَكَ المرهاءَ مِنْ أَرَقٍ ... مقامة من نجوم الليل في حسبِ

أَنْ شِمْتُ بارقةً مِنْ نَحْوِ ذِي عُشَرٍ ... حيثُ التَقَتْ بالروابي طلبة الحدبِ

يسقيكَ شرخُ الشبابِ في محافلها ... بينَ اللدينِ كؤوسِ الوجدِ وَالطَّرَبِ

وراوَدَتْكَ إِلَى الدنيا لرغبتها ... فيما تعودُ مِنْ حِرْصٍ ومن رغبِ

شاهدتَ كلَّ الذي ترى الشهودَ لَهُ ... في عينِ مشهدِهِ كأغيبِ الغيبِ

إلى المرادِ المربي الشيخ سيدنا ... محمدٍ بفنونِ العلمِ والأدبِ

ذاك الذي فيضانُ البحرِ مُقْتَبَسٌ ... من قلب به للحقِّ منقلبِ

مَنْ كانَ تهذيبُهُ زيف النفوسِ لها ... طهرا بمنزلةِ التطهيرِ للجنبِ

أغثْ ندائي وتغويثي على عَجَلٍ ... وانظر إليَّ بعينٍ عاطفٍ حدبِ

وواسني باعتناءٍ منك ينقذني ... بالجذبِ من هذه الوهدانِ والجوبِ

إنِّي مريضك يا طبَّ القلوبِ فلا ... تتركْ مريضَكَ يشكو شدةَ الوَصَبِ

صلى عليه صلاةٌ لا نفادَ لها ... مَنْ حاطَ مِلَّتَهُ بالسمرِ والقضبِ

3. **قصائد الدعاء والتضرع:** من ذلك على سبيل المثال القصيدة التالية للشاعر بدي بن سيدينا العلوي التي نورد منها ما يلي:

إنّـــي لبابـــكَ ربّـــي أقْـــرَعُ ... مُسْتَشْـــفِعًا بمحمـــدٍ أتضـــرَّعُ
صـــلى عليـــه الله مـــا فضـــل الـــورى ... وغـــدا حِمًـــى يـــأوي لـــه مَـــنْ يَفْـــزَعُ
يـــا حـــيُّ يـــا قيـــومُ عبـــدُكَ وَاقِـــفٌ ... بالبـــابِ تبصـــرُ مـــا أراد وتَسْـــمَعُ
فـــاغفر لـــه فالموبقـــاتُ صـــغيرةٌ ... فـــي جنـــبِ عفـــوك واســـترنْ مـــا يصـــنعُ
أصـــلح برحمتـــك التـــي عَمَّـــتْ شُـــؤُو ... نِـــي كلهـــا فليـــرأبِ المتَصَـــدِّعُ
ولتجمـــعِ الشـــملَ المبـــددَ جـــابرا ... كَســـري بـــه جبـــرا وخرقـــي يرقـــعُ
كـــن لـــي وليـــا يـــا ولِـــي وناصـــرا ... ومـــدبرا ومـــدافعا مـــا يـــدفعُ
يـــا رب حققنـــي بأوصـــافي عســـى ... بصـــفاتك الحُســـنىَ صـــفانني تـــدفعُ
ثـــم الصـــلاة علـــى النبـــي وآلـــه ... خيـــرِ الأنـــامِ ومَـــنْ بـــه أستشـــفعُ([1])

ويقول لكبيد بن جبه:

دعوتـــك لمـــا ضـــاق صـــدريَ مـــن وزري ... لتغفـــر لـــي وزري وتشـــرح لـــي صـــدري
أجـــبْ لـــي دُعـــائي فيـــهِ واقبـــل ثنـــاءهُ ... وَخَلِّصْـــهُ لـــي مِمَّـــا بِإِخْلاصـــهِ يُـــزْرِي
إلهـــي أوزعنـــي أن اعمـــل صـــالحا ... لترضـــى وثبتنـــي علـــى الـــذكر والشـــكرِ
وأســـألك التوفيـــقَ واللطـــفَ والرضـــا ... عـــن الله والتســـليم فـــي اليســـر والعســـرِ
وبـــالأمن جُـــدْلِي مـــا حَيِيـــتُ مـــن الأذى ... وبـــالأمن عنـــد المـــوت والأمـــن فـــي القبـــرِ
وأمنـــا إذا أثقالهـــا الأرضُ أخرجـــت ... وأمنـــا لـــدى الأهـــوال فـــي موقـــف الحشـــرِ
بجـــاه المصـــطفى مـــن علـــت بـــه ... علـــى كـــل ذي مجـــد وفخـــر بنـــو فهـــرِ
عليـــه مـــن أنـــواع الصـــلاة أتمهـــا ... وأكمـــل أنـــواع الســـلام مـــدى الـــدهرِ([2])

([1]) . بدي بن سيدينا، الديوان، تعليق ومراجعة: محمد بن بتار بن الطلبة، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، (1434هـ/2013م)، ص:85-87.

([2]) . ديوان لكبيد بن جبه، مصدر سابق، ص:47.

نلاحظ في هذا السياق أن قصائد الدعاء والتضرع تحيل في بنائها على جملة من الآيات القرآنية والأدعية المأثورة (إلهي أوزعني أن اعمل صالحا. أسألك التوفيق واللطف والرضا -وأخرجت الأرض أثقالها)، بيد أنها لا تشتمل على أي مقدمات ولكن الخاتمة تكثر فيها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقصيدتي ابن سيدينا ولكبيد شاهدين على ذلك.

4. **التوسل:** وهو موضوع رئيسي من موضوعات الشعر الصوفي له حضور بارز في نصوص شعرائنا كقول الشيخ سيدي المختار الكنتي:

أمن سَرَّهُ نحو المحبينَ قد يسري ... ترفَّقْ بنا ولتبدلِ العسر باليسرِ
فَنَدْعُو مع التفويضِ ربنا بحالنا ... عليمٌ ولا نشري السلامةَ بالخسرِ
إليهِ رفعتُ فاقتي وخصاصتي ... وفقري وإفلاسي فَوَلَّيْتَهُ خبري
وللرسلِ فضلٌ رتبن عليهم ... وليس يدانيهم سوى الذَّفَرِ الْغُرِ
وثم صلاة الله ثمَّ سلامه ... على أحمدَ المختار من خيرِ معشرِ([1])

ويقول محمد يحيى الولاتي متوسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته الكرام:

ما لامرئٍ مثلي كثيرِ الْعَابِ ... إلا اللجاء لربنا التَّوَّابِ
متوسلا بنبيهِ وَبِآلِهِ ... وبجملةِ الأصحابِ والأحزابِ
بِمُحَمَّدٍ أَصْلِ الْهُدَى عينِ الهدى ... نورِ الهدى لشريعةِ الوهابِ
وبفاطمةٍ ورقيةٍ وبزينبٍ ... وبأمِّ كلثومٍ وبالأعقابِ
وبنجله إبراهيم ثمَّ بقاسمٍ ... وَبِطَيِّبٍ وبطاهرِ الأحسابِ
يَسِّرْ لنا مَبرورَ حَجٍّ عاجلا ... مَعْ عُمْرَةٍ مقبولةٍ ومتابِ
والفوزَ بالمأمولِ في الدنيا وَفِي ... دارِ النعيمِ بحورها الأترابِ
ثم الصلاة على النبي وآله ... ما فاهَ ذو نطقٍ بقولِ صوابِ([2]).

([1]) . ديوان الشيخ سيدي المختار الكنتي، ص:33-46.

([2]) . ديوان الشيخ محمد يحيى الولاتي، مصدر سابق، ص:55-56.

يبدو من خلال عرض المقاطع الآنفة أن قصائد التوسل تشارك نصوص الدعاء في مباشرة دخول غرضها الأساس دون اللجوء إلى مقدمات مع الختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها نلاحظ قوة توجه الشاعر إلى المتوسل به، وشدة إظهار فاقته إليه، وكثيرا ما يستخدم لذلك صيغة الجملة الفعلية لدلالتها على الطلب: (ليصلح الله شأني وأن يثبتني وأن يطهر قلبي وأن ييسر وأن يبارك، فندعو مع التفويض إليه رفعت فاقتي وأسألك اللهم)، مع الاستعانة بأدوات الربط: (الواو الفاء ثم) وذلك لتخلق من فضاء القصيدة نصا محكم البناء.

5. **الزيارة:** ومن أهم النصوص التي تدخل في هذا الغرض زيارة بدي بن سيدينا العلوي لقبر شيخه محمد الحافظ رائد الحافظية التجانية:

يـــا روضـــةً فـــي بطنهـــا عـــارفُ ... يرقـــى إليـــه مســـندٌ حَافِـــظُ
نقـــشُ اســـمه أذكرنـــي ذاتَـــهُ ... فالقلـــبُ مِـــنْ تـــذكاره نائِـــظُ
ذاتٌ عليهـــا نورهـــا لائـــحٌ ... يرعـــب مـــن هيئتـــه اللاَّحِـــظُ
ذاتٌ منيبـــةٌ إلـــى ربهـــا ... صـــاحبها مـــن حبـــه فـــائظُ
عليـــه مـــن ربـــي الرضـــى مبكـــرا ... وممســـيا مـــا أســـمعَ اللاَّفِـــظُ[1]

وللشيخ سيدي من قصيدة له في زيارة ضريح الشيخ سيدي المختار الكنتي؛ إذ يقول:

أســـيدنا المختـــارَ يـــا مَـــنْ وفاتـــه ... حيـــاة ومحيـــاه الكـــريم وفـــاةُ
أغثنـــا أغثنـــا فالقطيعـــة مزقـــت ... قلوبـــا أفـــلا ذهـــن شـــتاتُ
حنانيـــك يـــا شـــيخ الشـــيوخ فإننـــا ... لـــدى بابـــك المفتـــوح أســـرى عفـــاةُ
وفـــاض علينـــا بـــالرواء غطمطـــم ... فيـــوض بـــه الأمـــواجُ ملتطمـــاتُ
أمـــد مـــن البحـــر اللـــدنيِّ مـــدة ... علـــى أمـــة الهـــادي لهـــا دفقـــاتُ[2]

([1]) . ديوان الشيخ سيدي المختار الكنتي، مصدر سابق، ص:84.

([2]) . ديوان الشيخ سيدي الكبير، مصدر سابق، ص:66- 68.

وفي النهاية نخلص في مقاربة هذه النصوص إلى أن القصيدة الصوفية الموريتانية تجلى بناؤها العام في نوعين رئيسيين هما:

أ- القصيدة العمودية التقليدية: بما في ذلك القصيدة المسوقة على ترتيب أحرف قوله تعالى: «**ادعوني أستجب لكم**» كما في قصيدة الشيخ سيدي المختار الكنتي، أو المرتبة على حروف: « **رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري**» كما في قصيدة الشيخ سيدي الكبير، أوالمبنية على ترتيب الحروف الهجائية كما في عينية الشيخ ماء العينين، هذا بالإضافة إلى عدة أشكال أخرى يجدها القارئ في محلها من هذا البحث.

ب- القصيدة الموشحة: ويدخل في هذا البناء عدة أشكال شعرية، ومنها: مربعتي الشيخ سيدي المختار الكنتي، وبدي بن سيدينا العلوي في المديح النبوي، ومربعة الشيخ ماء العينين في التوسل، ومربعة محمد يحيى الولاتي في مدح الشيخ سيدي أحمد التجاني، ومخمسة واحدة لمحمد يحيى الولاتي التي يهجو فيها بعض الروافض الشيعية الذين يجيزون الطعن في الصحابة رضوان الله عليهم، وقصيدة شعبية مبنية على نمط بناء (الطلعة) في الشعر الحساني كما في قصيدة للشيخ سيديا الكبير.

المصادر والمراجع:

1. أبو بن الجار الأنتابي، الديوان، جمع وتحقيق: الخراشي بن محمد أحمد، رسالة الإجازة (مرقونة) بكلية الآداب جامعة نواكشوط، السنة (2004/2003).
2. أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الشركة الدولية للطباعة، ط6، (1429هـ/2008م).
3. بدي بن سيدينا العلوي، الديوان، تعليق ومراجعة: محمد بن بتار بن الطلبة، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، (1434هـ/2013م).
4. الدكتور: محمد الظريف، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، منشورات مؤسسة امربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، ط1، 2003.
5. الدكتور: محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، دار الأمان بالرباط، ط2، (1424هـ/2003).
6. سيدي عبد الله بن انبوجه، ضالة الأديب ترجمة وديوان سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجه العلوي التيشيتي، تحقيق ودراسة الدكتور: أحمد ولد الحسن، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو-(1417هـ/1996.
7. الشيخ سيدي المختار الكنتي، الديوان، (مخطوط شخصي).
8. الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبه، الديوان، تحقيق: عبد الله بن إسماعيل بن أبي مدين، (د. ت).
9. الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل، الديوان، تحقيق: بسام محمد بارود، تقديم: ماء العينين محمد بوي، طبع على نفقة الدكتور: حسن عباس زكي، 2004.
10. العجاج، الديوان برواية: عبد الملك بن قريب (الأصمعي)، تحقيق الدكتور: عبد الحفيظ السطلي، مكتبة: أطلس دمشق، ج2.
11. لكبيد بن جبه اليحيوي التندغي، الديوان جمع وتحقيق: أحمدّ بن الشايع، تقديم ومراجعة: الخليل النحوي، الشركة العامة للطباعة تونس، ط1، 1992.
12. محمد يحيى الولاتي، الديوان جمع وتحقيق: الساس ولد أبّ، رسالة (مرقونة) بالمدرسة العليا للأساتذة والمفتشين 1984.